صلاح الدين الأيوبي ومواقف إنسانية خالدة

د. شوكت عارف محمد الاتروشي
فاكولتي العلوم الانسانية – جامعة زاخو
moc.oohay@2006takwahs.dr

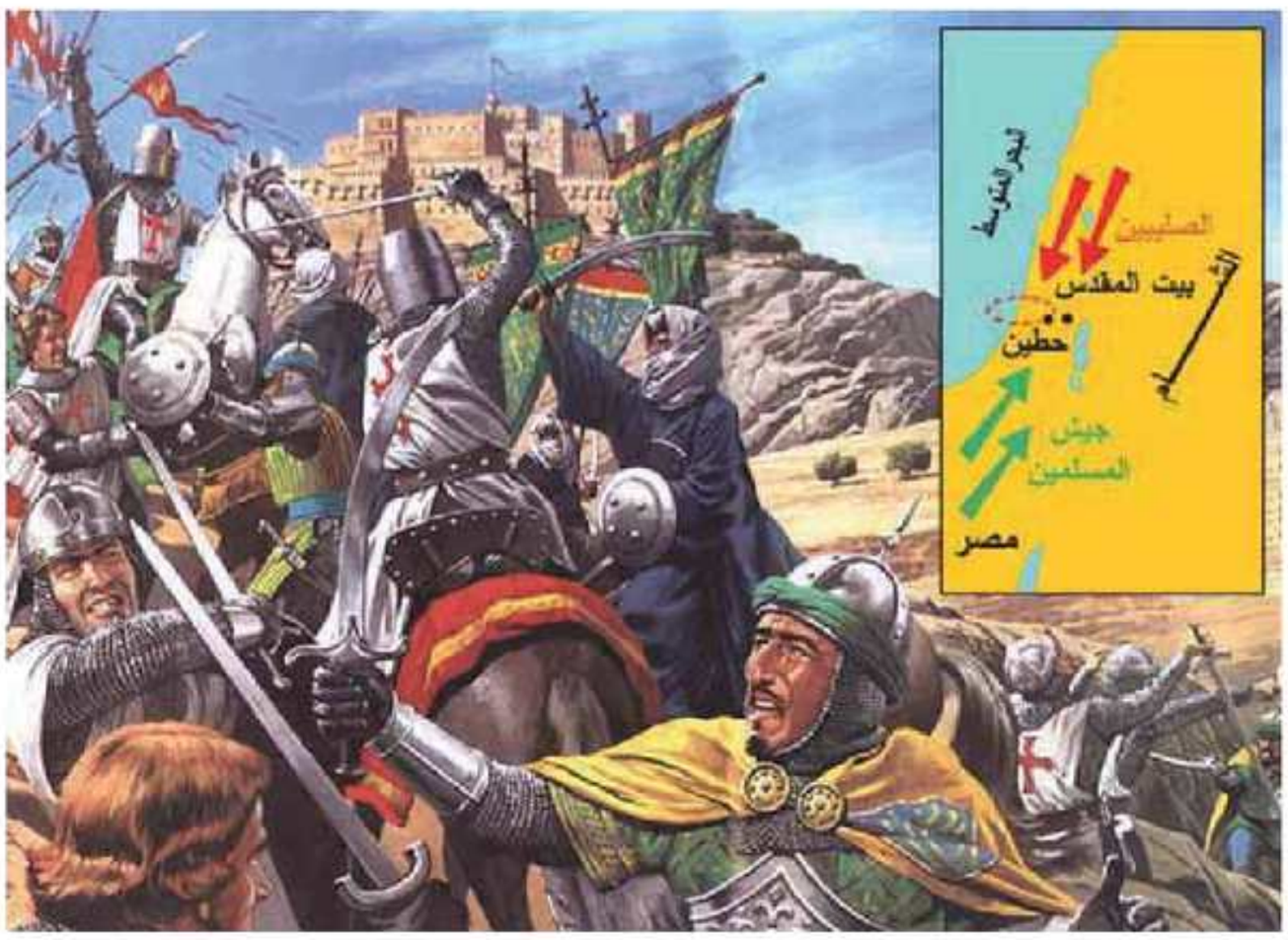

كثيرةٌ هي البحوث والدراسات عنْ السلطان صلاح الدين الأيوبي,إلا أنّ ما يُؤسف له أن أقلام الباحثين انصَبت على دراسة إنجازاتهِ السياسية والعسكرية بعِينها دونَ الخوضِ بشيء مِن التفصيل في تناول العوامل التى مكنّت صلاح الدين مِن تحقيق إنجازاتهِ السياسية والعسكرية, بلْ وحتى الحضارية الكبيرة,ومِن ثمّ ارتأينا تَسليط الأضواء على طبيعة السياسة التى انتهجها صلاح الدين, مَركزين في المقام الأول الحديث على فرُوسيتهِ ومواقفهِ الإنسانية التى اشتهَر بها,وكانت مَحل إشادة الأعداء قَبل الأصدقاء, مما مكنّه في نهاية المطاف مِن تحقيق إنجازاتهِ السياسية والعسكرية الكبيرة في الخارج, كما مكّنهُ من القيام بحركة إصلاحية شاملة في الداخل.

ومِن خِلال تتَبع سِيرته في المصادر التاريخية يُمكن القول أنّ صلاح الدين كانَ

نَموذجاً للفرُوسية بكلِ معَانيها(١) فبالإضَافة الي الشجاعة والمهارات القتالية العالية ـ التي تمَتع بهَا عُرف بإيمانه العميق, والصدقِ في القَول,والعملِ والوفاء بالعُهود,والكرم,والتفاؤل,والتضحية مِن أجل المبدأ,والتسامح والتفَاني في حِماية الضَعيف, ونُصرةِ المَظلوم,والدفاع عَن الحق والعدل,واحترامَ المرأة,وقد تعَامل بهذه الآداب والقِيم في عَلاقته معَ رعاياه, ومع أعداءه الصليبيين على حَد سواء .

ومِن المعَروف أنّ صلاح الدين ظَهر في عَصر اشتَد فِيه الصِراع بيـــن العالمين الإسلامي والغرب الأوربي,وهو عَصر الحروب الصليبية,وقد حَرص المؤرخون المُعاصرون على تَقديم شَهادات مَوضُوعية عن مَدى التزام صلاح الدين بالمُثل الأخلاقيةِ والإنسانية العالية ,لا مع رعاياهُ وحَسب,وإنما مع أعدائه الصليبيين أيضاً,ومِن بيَن تِلك الشهاداتِ المعاصرة ما قام به المؤرخ ابن شداد (ت: ٦٣٢هـ /٩٣٢١م),الذي كان مُرافقاً له حيثُ صنّف كتابهُ :« النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية×ليُعرض فِيها سِيرة صلاح الدين, وقد قسّم كتابهُ الي قِسمين أساسيين: الأول خصّصهُ للحديث عَن أخلاقِ صلاح الدين ,وشَمائله,وعلاقته مع رعاياه,حيثُ أشار الي عمق إيمانهِ,والتزامه بأداء فرائضهِ الدينية(٢),وحِرصه كذلك على حضُور مجَالس العلماء لينَهل مِن العلوم والمَعارف, مِن ذلك زيارته الي مَجلس الشيخ الحافظ الأصفهاني في الإسكندرية لسماع الأحاديث النبوية الشريفة(٣),كما تحدث ابن شداد عن كرم صلاح الدين الذي بَلغ حدا جعل المسئولين عن خِزانته يخَفون عنهُ شيئاً مِن المال خَوفاً أن يُفاجئهم أمر مُهم,لأنه كان يعَطي وَقت الضيق كما يعَطي وَقت السعة,وشَمل بكرمه جَميع رعَاياه بغض النظر عنْ مَذهبهم الدينى أو اتجاهِهم الفكري (٤),ويذكر إبن شداد أنّ السلطان لم يترَك في خِزانته سِوى دينار ذهبى واحد,وأربعين درهماً فضياً(٥).

أما عَدله فَقد أوضح ابن شداد أنهُ كانَ حَريصاً أشدّ الحرص على إنصاف المظلوم ,وتحقيق العدالة, وحِماية الضعيف,حتى أنه خصّص يوميي الاثنين والخميس مِن كل أسبوع للجلوس للمَظالم (٦),أما شَجاعته فيَقول عَنها ×أنهُ كانَ مِن عُظماء الشجعان ,قَوي النفس ,شَديد البأس,عظيم الثبات,ولا يَهوله أمر«(٧).

أما القِسم الثاني مِن الكتاب فَقد خصّصهُ ابن شداد للحديث عَن فتوحات صِلاح الدين,إلا أنهُ سّجل في ثَنايا ذلك بوصفه شاهد عَيان ,الكثير مِن المواقف الإنسانية والتى تَكشف عَن عمق التزامهِ بأخلاق الفرُوسية وآدابها مع أعَدائه,حَتى وهو في ذرَوة انتصاراتهِ عليهم,ولم يَكن متَهوراً في قراراتهِ أو مِن الذينَ يَركنونَ الي القوةِ العمياء المجردة مِن العَقل والحكمةِ,بل عُرف عَنه أنه كانَ مِن المستنيرين حَيث كانتْ مجَالسه ×حافلةً بأهَل العلم والفضلِ«(٨),يستشيرُ ذَوي الخِبرة المقَربين مِنهُ في كُل خُطوة يخطوها, مِن العلماء المقربين مِنه نَذكر على سَبيل المثال: أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف بهاء الدين

البيساني المعروف بالقاضي الفاضل(ت: ٦٩٥هـ / ٩٩١١م).تولي ديوان الإنشاء وحَسبما أشارت المصادر كان:« سُلطانه مُطاع,والسُلطان له مُطيع«(٩).وهو المُشار إليه × بالسَيف والقلم«(١٠).مَدحه السُلطان في أحد مجَالسه الحَافلة وأشَاد بَدورهِ وخدمتهِ مُخاطباً الحضور:« لا تَظنوا أني مَلكت البلاد بسيوفكم, بل بَقلم القاضي الفاضل ×(١١).

مِن جِهةٍ أُخرى عُرف عنْ السُلطان صلاح الدين مَيله الي التسَامح مع مَن يُخالفه في الرأي والاعتقاد, طالما كانَ ذلك لا يتعارض مع الشرع الإسلامي الحنيف ,ولا يُهدد أمنْ دولته, لذلك نَجده رَغم انتمائهِ الي المَذهب السُنى الشافعي, إلا أنهُ لمْ يَكن مُتعصباً له بحيث يُلغي ما عَداه مِن المَذاهب,ولمْ يُجبر أحداً مِن رَعايا دولته على ترك عقيدتهِ أو مَذهبه مِن أيّ مِلة كانْ أو مِن أيّ دين,بلْ العَكس كانت سياستهُ تَقوم على استقطاب الجميع مِن أجَل خَلق جَبهة قوية مُوحدة(٢١)

كما لمْ يُعرف عَن صلاح الدين أنهُ حَارب الفكر الشيعي,أو سَعى الي تغييرهِ بالقوة , ولم يُثبت عنه أو عن أحد أبنا ءهِ أو أهل بيتهِ أنهُ حاربَ التشيع أو أيّ مذهب أخر, إلاّ ما كان مِنهُ ما يُفرق وحدة المسلمين ويَسعى الي ضعفهم,وتجزئتهم, الأمر الذي سَيؤدي الي تمكين عدوهم الصليبى من بلادهم, ولذلك سعى الي إلْغا ء الخلافة الفاطمية كتنظيم سياسي ولم يَسع الي إلغا ء الفكر الشيعي ولم يَرد في المصادر التاريخية أيةُ روايةٍ تُشير الي مَواقف سلبية لهُ تجاه الفكر والمذهب الشيعي أو المنتمين لهُ, وكانَ إنهاء الحكم الفاطمي ضُرورة من ضُرورات ذلك العصر لضعف الفاطميين وتَهاونهم وتَعاون قَادتهم مع الغزاة الصليبيين (٣١).

والملاحظ كذلك أنّ إلغا ء الخلافةِ الفاطمية ذاتها قد تمّ بُهدوء نسبى,ولمْ يُحدث أي اضطراب سياسي أو عسكري أو ردة فعل جراءَ ذلك التغَيير السياسي,وعلى حَد قول المؤرخ إبن الأثير(ت:٦٣٠هـ / ٢٣٢١م) :« لم ينتطح بِها عَنزان«(٤١),وقُوبل إلغا ء الخِلافة الفاطمية مِن قِبل سَواد المَصريين

بالارتياح التام,إلاّ أنّ بعض المنتفعين من المرتزقة والجنود الذين تضرروا وخسروا مناصبهم ومراكزهم أوشكوا على القيام بتمرد لإعادة مجد الدولة الفاطمية بالتعاون مع الصليبيين,ولكنْ سُرعانَ ما قُضي على مُخططهم سنة ٩٦٥هـ/ ٣٧١١م(٥١),وهذا إنّ دل على شيء فإنما يدل على الحكمة السياسية والمرونة التى أبداها صلاح الدين من جهة, فضلاً عنْ مدى التأييد الذي حظي به حُكمه من قبل عامة المصريين من جهة أخرى.

وقد وجد صلاح الدين بعد إلغاء الخلافة الفاطمية ضُرورة القيام بحركة إصلاح شاملة لبناء دولته على أسس من العدالة والتسامح والوحدة الفكرية والأخلاقية, والسعي لتقوية تلك الأسُس والدعائم لخدمة أهداف الوحدة ورّص الصفوف في دولة قوية تحت إشراف الخليفة العباسي (٦١).

وقد بدى تسامح صلاح الدين واضحاً وجلياً في الكثير من المواقف, فعندما قام بإقصاء قُضاة العهد السابق – من الشيعة الإسماعيلية – سنة ٦٦٥هـ / ٧١١٠م لمْ يتعرض لأحدهم بسوء انطلاقاً من إيمانهِ بانّ التعصب يتعارض مع مبادىء الإسلام السمحة : « لا إكراه في الدّين قد تّبين الرُشد من الغي ×(٧١),كما أنهُ أدرك بأنّ التعصب المذهبى أو الشخصي يُصاحبهُ الجهالة والجمود الفكري وهو ما لا يرضاهُ لنفسهِ لذلك سعى إلي إشاعة روُح المحبة والقانون,والابتعاد عن التعصب بكافة أشكاله وألوانه(٨١).

لقد كانَ مبدأ العدالة والتسامح نزعة أصيلة في نفس صلاح الدين وسجية من سجاياه التى طالما أشادَ بها المُورخون,وكانَ مبدؤه في التعامل مع الغير, الصدق في القول, والوفاء بالعهد حتى مع أعداءهِ الصليبين (٩١), ومن ثمّ فلا ضير أنْ اكتسبت سيرته المُستقيمة محبة الناس بما في ذلك أعداؤهُ (٢٠).

ومن مواقفه الإنسانية اهتمامهُ بأحوال رعايا دولتهِ من اليهود والمسيحيين, حيث شملهم بعطفه وعدالته,وكانَ معهم في غاية التسامح ,وأجازَ لهم الكثير من الحقوق الخاصة منها حّق اختيار رئيس أو بطريك بمحض إرادتهم (١٢),كما سعى الي حماية مراكزهم العبادية المتمثلة بالكنائس والأديرة,فأصبحت أماكن للدراسة والعبادة معاً(٢٢),كما قّلد ذوي الكفاءات منهم المناصب المهمة,وكانَ في رفقتهِ الكثير من أطباء اليهود والنصارى, نذكر منهم : الطبيب الموفق بن شوعة (ت: ٩٧٥هـ / ٣٨١١م),وهو من مشاهير أطباء اليهود (٣٢),والطبيب أبو البيان سليمان بن إسرائيل الملقب بالسديد(ت: ٨٥٠هـ / ٤٨١١م),حيثُ كان يعتمد عليه في معالجتهِ,وله فيه حسنُ ظن,وعندما بلغ بهِ العمر مبلغاً عجز فيهِ عنْ ممارسة مهنته أمر صلاح الدين بأن يُطلق له راتب تقاعدي مقداره أربعة وعشرون ديناراً كانت تصل إليهِ وهو مُقعد في دارهِ(٤٢).

وحظي الطبيب موفق الدين أسعد بن إلياس المشهور بإبن المطران (ت: ٨٧٥هـ /١٨١١م) بإحترام السلطان وتقدم عِنده« ونال من جهته المال مبلغًا

كثيرًا«(٥٢).والطبيب أبو منصور نجم الدين غالب بن مهند(ت: ٩٩٥هـ / ٢٠٢١م الذي بالغ صلاح الدين بإكرامهِ.فعندما أراد تزويج ابنته تكفل له السلطان بدفع مَصاريف الزواج التى بلغت نحو ثلاثين ألف درهم (٦٢).

وكانَ للمسيحيين واليهود مسَاهماتهم الفكرية الي جانب المسلمين لاسيما في مجال العلوم العقلية التِى كانت لهم الريادة فيها.وكثيراً ما قَرأ المسلمون على علماء من المسيحيين واليهود أو بالعكس (٧٢).وسَاد جو من الِوئام والتعاون بين الأديان والمذاهب المختلفة.وكان لسياسة صلاح الدين ومواقفه دور إيجابى فى التَخفيف مِن حِدة التعَصب المذهبى أو الدينى وحَالات التصدع والانشقاقات والِفتن التى سَادت قبَل مجيئهِ.وكانَ رجال الدين مِن المسلمين والمسيحيين واليهود في مقدمـة مَنْ استفادوا مِن تلك السياسة الـمرنة حيثُ أخَذوا يُجاهرون بكل مَا يَجولُ في خَواطرهم أو يَعتقدون أنه الصواب دُون خَوف أو وجَل.وكما يرى أحد المستشرقين نيوباي- تداخلت في عهدهِ :« العقائد والتقاليد ونشأت عنها عادات وتقاليد أُخرى انصهرت في كل كبير ضاعت فيه الي حد كبير الشعوب وطقوسها في الدولة الجديدة ..«(٨٢).

كما اشتهر السلطان صلاح الدين على الصَعيد الخارجي.حيثُ تجَلت فرُوسيته مِن خلال موَاقفه الإنسانية الرائعة في تَعامله مع أعداءِ الصليبيين.والتى كانت محل إشادة الأعداء قبلَ الأصدقاء.ومِن بَين تلك المواقف نذكر:

صلاح الدين وأسرى حطين :

بعد انتصار صلاح الدين علىِ الصليبيين في مَعركة حطين (٣٨٥هـ/ ٧٨١١م) أمر أن يعُامل الأسرى معَاملةً طيبة.وأنْ تُوفر لهم كُل أسَباب الراحة.كما استقبل صلاح الدين في خَيمتهِ عدداً مِن كِبار الأسرى الصليبيين.وفي مقَدمتهم الملك الصليبيِ(جايِ لوزجنان).و(أرناط)أمير حصنى الكرك والشوبك .فاستقبلهم استقبالاً حَسناً. وأجَلس الملك جاي إلي جانبهِ.وبَادر صلاح الدين بتَقديم إناء بهِ

ماء مُثلج للملك فَشرب حتى ارتوى ثُمّ أعَطى الماء الي (أرناط)الذي كانَ يَجلس الي جَانبه,فَشرب هذا بَدوره, وهُنا اعترضَ صلاح الدين على تَصرف الملك (جاي لوزجنان),وقال للمترجم ,قُل للملك إنه × لم يأخذ منى في سَقيه أذُنا ,فَليس له مِنى أمان. ذلك أنّ صلاح الدين كانَ قد أقسم يَميناً قَبل مَعركة حطين بأن يَقتل (أرناط) إذا ما ظَفر بهِ يَوماً ما ,وذلك عِقاباً له على نَكثه للعُهود والمَواثيق,وما اقترفهُ مِن جَرائم بحَق المسلمين,فَمن المَعروف أنّ (أرناط) كان قد أغَار أكثر مِن مَرة على قَوافل الحَجيج والتجار المسلمين والحق بِهم أفدح الخسائر,كما حاول غزو الحرمين الشريفين في مكة والمدينة. ولهذا فعَندما أعطى الملك (جاي لوزجنان) الماء لأرناط تنّبه صلاح الدين لقواعد الضيافة والفرُوسية عِند المسلمين,والتى تقول بأن الإنسان إذا قدّم الطعام والشَراب للأسير فإنّ ذلك معَناه الإبقاء على حيَاته,وبالتالي لا يَجوز له قَتله,وهذا يُفسر لنا كَيف بادر صلاح الدين الي التاكيد أنّ أرناط شَرب دونَ إذنه ,ثُمّ التفت صلاح الدين الي أرناط وأخذ يُذكره بَجرائمه وغدرهِ وانتهاكه لقَواعد الدين والشَرف والفرُوسية,والمُدهش أنّ أرناط كان يَرد على صلاح الدين,وهو تَحت رحمته بوقاحة,فَسّل السلطان سَيفه وأطاح براسه(٩٢),وعِندها أخَذ الملك الصليبى (جاي لوزجنان) يرتَعدُ خَوفاً لأنه ظنّ أنهُ سَيلقى المَصير نَفسهُ, غَير أن صلاح الدين وَضع يَده على كتفه وطمأنهُ بأن آداب الفرُوسية تَقضى الا يقتل الملوك الملوك وما كان له ليَقتل أرناط لولا أنه نَكث بُعهودهِ وتَجاوز حَده فَجرى عليه ما جرى(٣٠).

أما مَصير الملك الصليبى فقد أمر صلاح الدين بإطلاق سراحهِ بَعد أنْ أقسمَ بأن لا يعُود لقتال المسلمين, وأنَه سيتَوجه الي الساحل,ويُبحَر عائداً الي بلادهِ,كما عيّن صلاح الدين عدداً من رجالهِ لمرافقتهِ وحراستهِ حتى وصوله الي الساحل الشامي(١٣).

ومِن الوقائع المثيرة فيما نَحنُ بصَدده, هو ما جَرى بين صلاح الدين والأمير الصليبى (باليان) حاكم الرملة,فقد كان هذا الأمير قد فرّ مِن حطين قُبيل هَزيمة الصليبيين بقليل,ولجأ الي مدينة صور,في حين كانت زوجته في القدس, وبعد انتصار صلاح الدين في حطين,وقبُيل زَحفه الي القدس لفتحِها طلب (باليان) من صلاح الدين أنْ يَسمح له بالذهاب مِن صور الي القدس لإخرَاج زوجته مِنها,ووعد

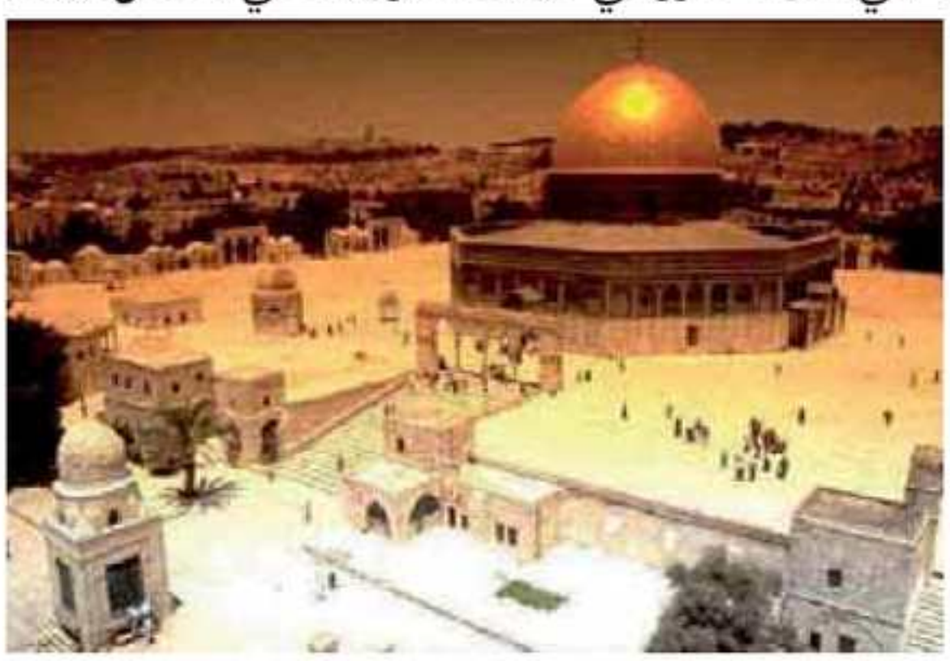

بألأ يَحمل سِلاحاً ضده وألأّ يبَيت في القدس إلاّ ليلة واحدة, فوافق السلطان على طَلبه, ولكن ما حَدث أنه عندما وَصل (باليان) الي القدس توسّل إليه الصليبيون والحّوا عليه بالبقاء ليَتولي الدفاع عنْ المدينة ضِد المسلمين ,لاسيما أنّ مَلكهم (جاي لوزجنان) كان قد وَقع أسيراً في حطين,ووَجد (باليان) نَفسه في مأزق خَطير,فهو فارس صليبى وعلى دراية بآداب الفرُوسية,فقد وعد صلاح الدين بعَدم حمل السلاح ضِده,ولهذا فإذا خَضع لرغبة الصليبيين في القدس فإنهُ سيَكون والحالة هذه ناكثاً بوعدهِ,ومُخالفٍ لقواعد الفرُوسية,ولم يَجد (باليان) حلاً لهذا المأزق الأخلاقي سِوى التوجه لمُقابلة السلطان وذلك لاستشارتهِ فِيما يَفعل,علماً أنّ السلطان صلاح الدين كانَ وقتئذ يَستعد لحِصار القدس تَمهيداً لفتحها, وبالفعل التقى(باليان) بالسلطان الذي أعجب بأخلاق هذا الفارس الصليبى,وأحّله من التزامه,ويَمينه,وقال له إذا كان الواجب يَفرض عليك البقاء في القدس وحمل السلاح فأفعل ذلك(٢٣).

وتجّلت فرُوسية صلاح الدين وأخَلاقه بصورة أكثر روعة عندما هيأ لزوجة (باليان) الحراسة اللازمة لإيصالها الي مدينة صور لانشغال زوجها(باليان) بتنظيم مسالة الدفاع عن القدس ضِد صلاح الدين...؟ والواقع أن ما فَعله صلاح الدين هو ما كانت تُمليه عليه الفرُوسية وآدابها,ويبدوا أنه أعُجب بهذا الفارس لهذا لم يَرفض طلبه لتمّسكه بآداب الفرُوسية وإنْ كانَ مِن أعداءهِ.

إطلاق سراح أسرى القدس :

كما عَالج صلاح الدين مسالة أسرى القدس بشهامة ونُبل, فبَعد أنْ تَمكن مِن فَتح القدس صُلحاً سنة (٣٨٥هـ/ ٧٨١١م),حيثُ سّلم الصليبيون على إثرها المدينة دون قِتال بَعد توقيعهم معاهدة صلح,اشتَملت على السماح للصليبيين بمُغادرة القدس بِسلام حاملين مَعهم كُل أمَوالهم,ولكنْ بِشرط أنْ تُدفع فدية قدرها عشرة دنانير عنْ كُل رجل, وخمسة دنانير عن كلٍ امرأة,ودِينار عن كُل طفل,كما أمهلت المعاهدة الصليبيين مُهلة أربعين يوماً ليتّدبر كُل مِنهم الفدية المطلوبة مِنه, واشتملت المعاهدة كذلك على احترام الأماكن المقدسة للمسيحيين في القدس,وعلى السماح لهم بالحَج إليها, وبناءً على ذلك تمّ إطلاق سَراح الآلاف مِن الصليبيين,ولكنْ عِندما انقضت المدة المحددة كان لا يَزال هناك الكثير مِن الصليبيين الفُقراء الذين عَجزوا عَنْ دفع الفدية عَنْ أنفُسِهم, واحتشدوا على أبواب القدس يَتوسلون مِن السلطان صلاح الدين,وهنا تجلت أخلاق السلطان بأروع صُورها,حَيثُ وافق على اقتراح (باليان)بأن يتّم إطلاق سَراح سبعة ألاف مِن الصليبيين الفقراء مُقابل مَبلغ إجمالي قَدره ثلاثون ألف دينار,أي غَدت فدية الرجل نحو أربعة دنانير بدلاً من عشرة, كما لبّى السلطان رغبةً أخيه الملك العادل بالموافقة على إطلاق سراح ألف أسير من الصليبيين

الفقراء دونَ فدية, كما نَزل على رَغبة بطريک القدس في إطلاق سَراح سبعمائة أسير مِن الفقراء دون فدية,ومما يُضاف الي ذلک أنْ صلاح الدين لبّى رَغبة (باليان) مرةً أخُرى بإطلاق سراح خمسمائة دون فدية, كما أمر بإطلاق سَراح جَميع الأسرى الصليبيين المسنين رجالاً ونساءً دون مُقابل,ثُم وافق علي طلب النساء الفرنجيات اللواتي افتَدين أنفسهنّ بأن يُطلق سَراح ما كان لهن في الأسر مِن أزواج وآباء, كما أمر أن تُقدم للأرامل واليتامى منّهن المساعدات المالية من خزانته قَبل سَفرهّن الي بلادهّن(٣٣).

وعِندما دَخل صلاح الدين القدس مَنع الاعتداء على الصليبيين,وشّكل مَجموعات مِن الحراس المسلمين مُهمتها أنْ تجوب شَوارع المدينة لتَمنع أيّ اعتداء أو أعمال انتقامية قد يَتعرض لها المسيحيون,كما أظهرَ احتراماً بالغاً للأماكن المقدسة المسيحية ,فِعندما طلب مِنه بَعض المسلمين هَدم كنيسة القيامة انتقاماً لِما ارتكبه الصليبيون بحَق الأماكن المقدسة الإسلامية عِندما احتلوها رَفض طلبهم رَفضاً قاطِعاً,بَل ضَاعف مِن الحَراسة على الكنائس وغيرها مِن أماكن العبادة المسيحية (٤٣).

كما تحدث المؤرخون عن الموقف النبيل الذي اتخذه صلاح الدين مِن بطريک القدس الصليبى ,فقد لبَّى رَغبته,كما أشرنا بإطلاق عدد مِن الأسرى الصليبيين الفقراء دون فدية, كما سمح له بأن يغُادر القدس بكل ما يملک من ثروات,بَل وزّوده بِحراسة خاصة للوصول الي مدينة صور,وافتدى البطريک نَفسه بعشرة دنانير فقط, و خَرج ومَعه أموال الكنائس" ما لا يَعلمه الإ اللّٰه تعالي,ويَبدو أن ذلک أثار استغراب عدد مِن رجال صلاح الدين,ولاسيما عِندما رأوا رؤية العين البطريک يُغادر القدس مَصحوباً بعدة عَربات مُحّملة بالذهب والنفائس مّما لا تَقل قِيمتها عنْ مائتى ألف دينار,ويَبدو أن أحد مستشاريه اعترض على السلطان وطالبه بِمصادرة ما يَحمله هذا البطريک على اعتبار أنّ خزائن الكنائس والأديرة هي مِن الأملاک العامة التى لا يجوز حَملها مَعه,فأجابه السلطان بأنه لنْ يَغدر

بالبطريک,وأنَه مُلتزم بالمواثيق والعهود التى قَطعها مع الصليبيين,وأنهُ لنْ يَسمح لأحد بأن يتَهم المسلمين بحنث العُهود والوعود, وأن الصليبيين لنْ يَنسوا ما نغمرهم بهِ من عَطف وإحسان (٥٣).

صلاح الدين يكرم النساء الفرنجيات :

مِن المَواقف الأخرى النبيلة لصلاح الدين مَا تَرويهِ المصادر أنهُ بَعد انتصارهِ في حطين مباشرة أعَطى الأمان لبعض النساء الصليبيات ومِنهنّ الأميرة (اشيفيا) أميرة طبرية,وعاملها بعَطف ورفق, وخَرجت بأولادها وأصَحابها وأموالها أمَنةً مُطمئنة, وسّيرها الي زوجها (ريموند) أمير طرابلس,وعِندما دَخل صلاح الدين القدس أطلق سَراح الملكة (سيبيلا) زوجة الملک الصليبى (جان لوزجنان) وأذِن لها أنْ تلحق بزوجها, كما سَمح لها بأن تأخذ مَعها كل مَا كانت تَملكه مِن ذهب ومُجوهرات ونفَائس, فَضلاً عَنْ أتباعها من الرجال والنساء,كما عامل صلاح الدين أرملة (أرناط) باحترام كبَير,حيثُ أطلق سَراحها,وسَمح لها بالخروج مِن القدس مَع أتباعها,كما استجاب لرَغبتها بإطلاق سَراح ابنها مِن الأسر بَعد أنْ فَتح شَقيقه العادل حُصنى الكرک والشوبک,وأكرمَ صلاح الدين عِندما فَتح القدس على حد قول ابن الاثير : × النساء الروميات – البيزنطيات اللواتي كنّ قد ترهبَّن وأقمّن في المدينة,ومعهنّ الخدم والحشم,علماً أنّ بعَضَّهن كنّ زوجات لملوک بيزنطيين,وقد أعطاهّن صلاح الدين الأمان وسَيرهّن الي بِلادهّن تحت حمايتهِ, ومَعهّن كل ما يتعلق بهنّ(٦٣).

عطفه على الشيوخ والاطفال:

ولم تقَتصر فرُوسيةُ صلاح الدين على الرجال والنساء,وإنما شَملت الشيوخ والأطفال,ومِن ذَلک مَا تَرويهِ المصادر مِن أنّ المسلمين كانوا قَد أسروا في بيروت عام(٧٨٥هـ / ١٩١١م)نحو خمسة وأربعين نفراً صليبياً, وبَعثوا بِهم الي صلاح الدين الذي كانَ مُرابطاً حِينها في ضواحي عكا لقتال العدو,ويَقول ابن شداد الذي كانَ شاهد عيان على هذهِ الوَاقعة:" وقدْ شاهدتُ مِنهُ رقةٌ ورحمةً في ذلک اليوم لم يُرَ أعظم منها رحمةً,وذلک أنهُ كانَ بَين الأسرى شيخٌ طاعنٌ في السنْ,ولم يبَق في فمَه ضِرس, ولمْ يَبق له قوة إلا مقدار ما يَتحرک بِها لا غَير. فقال السلطان للترجمان : أنْ يَسأله عَن السبب الذي حَمله على القدوم وهو في هذا العمر ؟ فأجاب:" أنّ مجَيئي إنما كانَ للحج الي كنيسة القيامة" . فرّق صلاح الدين ومَنّ عليه,وأطلقه وأعادهُ راكباً على فرس الي عسكر العدو"(٧٣).

ويروي ابن شداد قصة أخُرى مَفادها أنَ أحد المسلمين اقتحمَ خيمة الصليبيين واختطف مِنها طفلاً فرنجياً رضَيعاً عُمره ثلاثة أشهر,ولما فقَدته أمُه باتت طِوال الليل تستَغيث فنَصحها الأمراء الصليبيين بالخروج الي مُعسكر صلاح الدين وقالوا لها أنه ذو قَلب رحيم ولنْ يردَ طلبها, وبالفعل خرجت المرأة الفرنجية

رووگەھ
وەرزیە، پویتەی د دەتە فەکۆلین و وەرگێرانێن مرۆڤایەتی و زانستی

ووصلت الي صلاح الدين وبَكت بُكا ءاً شَديداً .فَسال عَنْ قِصتِها .فأخبروه فرّق لها ودمَعت عَينهُ , وأمَر بالبَحث عَنْ الطفل وإحضارهِ فوراً.وظل صلاح الدين واقفاً حتى أحُضَر الطفل وسّلم الي أمُه, وأرضَعته ثمّ أمَر صلاح الدين أنْ تحُمل علِى فَرس وتلُحق بعَسكر الفرنج مَع طفلها وسَط إعجاب الناس ودهَشتهم وذهولهم من شهامتهِ ورحمتهِ (٨٣).

قصته مع الملك ريتشارد قلب الأسد:

كانَ الملك الإنكليزي ريتشارد قد شَارك في الحملة الصليبية الثالثة التى استهدفت استرداد مَا حرّره صلاح الدين, ودارت معارك ضارية بَين ريتشارد وصلاح الدين ,وقد حاول ريتشارد الوُصول الي القدس إلا أنه فَشل فشلاً ذَريعاً,ومن ثمّ اضطر الي توقيع صلح الرملة مع صلاح الدين سنة (٨٨٥ هـ / ٢٩١١م),وغادر على أثرها الي بلادهِ,ولكنْ ما يَهمنا مِن هذهِ الأحَداث هو مَواقف صلاح الدين الإنسانية مِن عَدوه ريتشارد,حَيثُ تَذكر المصادر أنّ صلاح الدين سمعَ أن ريتشارد قد فَقد حِصانه في معَركة يافا سنة (٧٨٥هـ/ ١٩١١م), فبَعث إليه جَوادين مِن أفضل الجِياد التى عِنده,لأنهُ رأى أنهُ لا يليقُ بفارس مثلهِ أن يُقاتل راجلاً,كذلك أشارت المصادر أن ريتشارد عندما مَرض سنة (٨٨٥هـ/ ٢٩١١م) بعَث الي صلاح الدين يَطلبُ مِنه الفاكهة والثلج, ولم يتَردد السلطان في تلبية طلبه,حَيثُ بَعث إليهِ مَا يحَتاج إليهِ في مَرضهِ,وأعُجبَ ريتشارد بأخلاق ونُبل صلاح الدين, وأخذتْ رسُلهُ تتَردد لتقديم الشكر والامتنان بالنيابة عنهُ,وهناك رواية تقَول أنّ صلاح الدين حزن حُزناً شديداً على ريتشارد في بعَض مراحل مَرضه,وأنهُ أرسلَ له طبيبهُ الخاص الذي نَجح في عِلاجهِ(٩٣).

مما تَقدم يُمكن القول أنّ صلاح الدين كان مِثالاً للفُروسية بكل معَانيها,وهو وأحدٌ من شَخصيات التاريخ الإسلامي الأكثر شهرةً واحتراماً لَدرجة أنهُ يُضاهي في منَزلته المسلمين الأوائل,وهو شخصيةٌ ذَات أبعاد عديدة ومتلونة في مخَيلة المعجبين بهِ ماضياً وحاضراً لدرجةٍ أنهُ يُؤدي أدواراً مخُتلفة في أكثر مِن خِطاب قَومي ودينى وعرقي حديث. فهَو مِن وجهة النظر الإسلامية قائد مجاهد يعّتَدُ بهِ, وهو الذي دَحر الصليبيين, وتَمكن مِن تَشكيل جبهة إسلامية مُوحدة تحَت راية الشرعية العباسية .

كما انتزع بفُروسيتهِ وأخَلاقه احترام وتَقدير الأعداء قَبل الأصدقاء,فَهو مِن وجِهة النِظر الأوربية المَسيحية الكاثوليكية أكثر قواد المسلمين رأفة وفرُوسيةً ,بل هو واحدٌ مِن الشخصيات المعيارية في مجال الفرُوسية والشهامة بسبب أخلاقهِ الرفيعة وتأثيرها على معاملتهِ للأصدقاء والأعداء في صِراعهِ معَ الصليبيين مِما حدا بمعاصريهِ وتابعيهِ مِن الأوربيين للتغَنى بمَناقبه في الأغاني الفرُوسية ,وتمّنوا لو أن صلاح الدين كانَ مسيحياً,لذا فإنَ مِن واجبنا اليوم نَحنُ

الكُرد إحياءَ تلكَ القيم الأخلاقية, وأن نتمّثلها في ثقافتنا وسُلوكنا اليومي,كما أنّ علينا أنْ نعّتز بهذا القائد الذي أثبتَ بفرُوسيته ومَواقفه الإنسانية عنْ أصالة انتمائهِ الي الأمةِ الكردية العَريقة التى اشتهر أبناؤُها على مّر التاريخ بنَزعتهم الإنسانية التى تدل على رُقيهم الحضاري, لذلک يجَب إعادة تمثل أخَلاقه وفرُوسيتهِ في الصَراع القومي المعاصر الذي يحَتاج لشخَصيات تاريخية تلم شَمله وتعُطيهِ امتدادا زمنيًا وشعوراً مفُاخراً....

ـ هوامش البحث ـ

(١) يمكن تعريف (الفروسية) بانها مركب من مجموعة من الفنون والمهارات القتالية والمثل والمبادئ الأخلاقية, التى ينبغي أنٍ تتوافر فيٍ الفارس, حتى يستحق هذا اللقب , فليس كل من حمل سيفاً وامتطى فرساً غدا فارساً, وإنما عليه أن يتحلى ـ بالإضافة إلي الشجاعة والمهارات القتالية ـ بالإيمان والصدق في القول والعمل والوفاء بالعهود والكرم والتفاؤل والتضحية من أجل المبدأ والتسامح والتفاني في حماية الضعيف ونصرة المظلوم والدفاع عن الحق والعدل واحترام المرأة. ولكن قبل هذا وذاک يجب على الفارس أن يتعامل بهذه الآداب والقيم في علاقاته مع أبناء أمته ومع أعدائه على حدٍ سواء.

(٢) ينظر : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية , تحقيق. جمال الدين الشيال(الاسكن\رية: ٤٦٩١), ص٣٣ـ ١٤.

(٣) ابن شداد, النوادر. ص ٦٣.

(٤) ابن شداد , النوادر, ص٧٤ـ وما بعدها.

(٥) ابن شداد , النوادر , ص٧٤.

(٦) ابن شداد , النوادر, ص١٤.

(٧) ابن شداد , النوادر, ص٥٠.

(٨) عماد الدين محمد الكاتب الاصفهاني(ت: ٧٩٥هـ / ٢١٠٠م) الفتح القسي في الفتح القدسي(دار المنار:٢٠٠٤),ص٢٤٣.

(٩) تقي الدين احمد بن علي المقريزي(: ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) السلوک لمعرفة دول الملوک,(بيروت: ٧٩٩١), ج١/ ٨٢٢.

(١٠) شمس الدين يوسف, سبط بن الجوزي:مراة الزمان في تاريخ الاعيان(حيدر اباد الدكن١٥٩١) ,ج٨,ق١/٤٣٤, المقريزي, السلوک, ج١/٨٢٢.

(١١) سبط ابن الجوزي, مراة الزمان, ج٨,ق٢/ ٢٧٤.

(٢١) محمد الرحيل غرايبة" جهود صلاح الدين الايوبي في احياء المذهب السنى في مصر والشام ٤٦٥ـ ٩٨٥هـ ", مجلة الحكمة, المدينة المنورة ,ع(٢١),س (١٤١٨هـ),ص٤٣١.

(٣١) غرايبة , المرجع نفسه, ص٥٣١.

(٤١) علي بن محمد بن عبدالكريم ابن الاثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية

بالموصل, (القاهرة: ٣٦٩١),ص٦٥١.
(٥١) ينظر: ابن الاثير , الكامل في التاريخ(بيروت: ٩٧٩١), ج١١/٨٩٣ـ ٩٩٣, المقريزي, السلوك, ج١/ ٢٦١ـ ٣٦١.
(٦١) ب.هـ .نيوباي, صلاح الدين وعصره, ترجمة.ممدوح عدوان(دمشق: ٣٩٩١),ص١ ٠ .
(٧١) القران الكريم, سورة البقرة, من الاية (٦٥٢).
(٨١) البر شاندور, صلاح الدين الايوبي, ترجمة عن الفارسية .محمد قاضي(طهران: ٥٧٣١هـ),ص٧٧.
(٩١) عماد الدين الكاتب الاصفهاني, الفتح القسي في الفتح القدسي, (القاهرة: ٥٦٩١),ص٧٥٦, ستيفن رانسيمان, تاريخ الحروب الصليبية, ترجمة السيد الباز العرينى(بيروت: ٧٦٩١),ج٣/ ٨٤١, نيوباي, المرجع السابق, ص٨.
(٢ ٠) هاملتون جب,صلاح الدين الايوبي, دراسات في التاريخ الاسلامي, ترجمة .يوسف ايبش(بيروت: ٣٧٩١),ص٥٩١.
(١٢) جرجيس ابن ابي المكارم ابن العميد (ت: ٢٧٦هـ / ٣٧٢١م):اخبار الايوبيين (دمشق: ٨٥٩١) ,ص٢ ٠ـ ١٢,
(٢٢) نيوباي, المرجع السابق, ص٣٤.
(٣٢) احمد بن القاسم ,ابن ابي اصيبعة (ت: ٨٦٦هـ/ ٩٦٢١م): عيون الانباء في طبقات الاطباء(بيروت: ٩٧٩١),ص١٨٥.
(٤٢) ابن ابي اصيبعة , عيون الانباء, ص ٨٥ ٠ .
(٥٢) ابن ابي اصيبعة , عيون االنباء, ص٢٥٦
(٦٢) ابن ابي اصيبعة, عيون الانباء, ص٢٥٦.
(٧٢) جمال الدين عبدالرحيم الاسنوي(ت: ٢٧٧هـ / ٧٣١ ٠م): طبقات الشافعية , (بيروت: ٧٨٩١),ج١/ ٥٨١.
(٨٢) نيوباي, المرجع السابق, ص ٩.
(٩٢)ابن شداد, النوادر السلطانية, ص١٣١ ٠ـ١٣١.
(٣ ٠) ابن شداد, النواد ر,ص١٣١.. ابن واصل,مفرج الكروب, ج٢/ ٥٩١.
(١٣) ابن واصل,مفرج الكروب , ج٢/ ٥٩١.
(٢٣) ابن شداد, النوادر,ص٦٣١.. ابو شامة , الروضتين, ج٢/ ٥٩.
(٣٣) ابن واصل, مفرج الكروب, ج٢/ ١٣٢.
(٤٣) العماد الاصفهاني,الفتح القسي ,ص٢٨.
(٥٣)العماد الاصفهاني,الفتح القسي ص ٥٧ـ٦٧.
(٦٣) ابن شداد, النوادر ,ص٦١ ٠. علي محمد الصلابي,صلاح الدين الايوبي,(بيروت:: ٢ ٠ ٠٨), ص٤٥ ٠ .
(٧٣) ابن شداد, النوادر ,ص٦١ ٠. الصلابي,صلاح الدين الايوبي,ص٧٩٣.
(٨٣) ابن شداد, النوادر , ص٨٦ـ ٩٦, العماد الاصفهاني,الفتح القسي,ص٣٥٢.
(٩٣) عماد الاصفهاني,الفتح القسي,ص ٩١٣,عبدالعزيز سيد الاهل, ايام صلاح الدين,(القاهرة: ٤٦٩١),١٢٢ـ ٢٢٢.